القديسة صالصا بتيبازة بين الأسطورة و الحقيقة الأثرية

جهيدة مهنتل
جامعة الجزائر 2

مقدمة :

يرتبط اسم القديسة صالصا بتراث مدينة تيبازة، أين توجد بازيليك تنسب إليها في المقبرة الشرقية للمدينة الأثرية، ويرتبط ذكرها أيضا بطقس الشهداء المسيحيين، الذي نفتقد فيه إلى الشواهد المكتوبة بالنظر إلى عدد القبور الكبير.

و رغم ما قيل عن هذه الشهيدة المسيحية، فان الغموض لا يزال يكتنف شخصيتها، لأنه لم يعثر على شاهدة تحمل اسمها فوق قبرها، وإنما اهديت لها كتابات تخلد ذكراها.

فما هي حقيقة هذه الفتاة المسيحية من الأسطورة.

قبل الحديث عن النصوص والاكتشافات الأثرية التي لها صلة بالقديسة، أريد التطرق أولا إلى اسمها صالصا-salsa-، وهو اسمها الوحيد، لأنه بعد القرن الثالث ميلادي، وفي الفترة المتأخرة خصوصا، أصبح أغلب الأشخاص يكتفون باسم واحد، وهو الكنية -cognomen- التي كانت هي الاسم الرسمي و الفعلي للشخص، تعطى له حسب ميزة فيزيائية أو أخلاقية أو عرقية.

و بالنسبة لكلمة صالصا، فلغويا يمكن اخذ معناها من الصفة - salsus,salsa- وتعني مالح، أو من الفعل -sallire- يملح، وقد أنساق بعض الباحثين الهواة، و منهم حتى صحفيين كما يمكن الإطلاع عليه في صفحات الانترنت، إلى ترجمة اسم صالصا بالمالحة، وربطوه باسم مالحة المحلي، صحيح ان هذا الاخير موجود، ولكنه لا يترجم الكنية صالصا المقصود بها هنا، لأننا إذا رجعنا إلى المعنى الاصطلاحي لكلمة صالصا اللاتينية، فإنها تعطينا معنى الروحية أو ذات الفكر النقي، وهو ما يتماشى مع شخص القديسة، فكنيتها هنا تعبر عن صفة أخلاقية ربما أعطيت لها بعد استشهادها، ولقد حاولت تلخيص كل ما يتعلق بها في النقاط التالية:

1 - القديسة من خلال النصوص:

لقد ذكرت هذه القديسة في نص محلي -Passio-[1]، يشير إلى استشهاد شابة مسيحية عمرها أربعة عشر سنة، رمي بها في البحر من طرف أشخاص وثنيين، لأنها تجرأت على تدنيس مقدسات وثنية في احد معابد مدينة تيبازة، وحسب النص فقد عثر على جثتها سالمة بعد مرور ثلاثة أيام على غرقها، وهو الشيء الذي اعتبره السكان مقدسا، وبمثابة إشارة إلهية، فقاموا بدفنها، وبنوا مصلى أو ضريحا فوق قبرها، وقد كتب هذا النص في نهاية القرن الرابع ميلادي أو القرن الخامس ميلادي[2].

ولا يحدد النص التاريخ الحقيقي لمولدها- Natalis -، و يقصد به في طقس الشهداء المسيحيين يوم وفاتها، لأن طقس الشهداء المسيحيين ولد فوق القبر، ويكون بذلك يوم وفاة القديس هو يوم مولده الذي يحتفل به، ولقد تضاربت النصوص في تحديد تاريخ مولدها، وما يحيرنا هو ان اسم هذه القديسة لم يذكر في تقويم قرطاجة، أين توجد معظم أسماء القديسين الأفارقة، أي ان طقسها لم يخرج من حدود مدينة تيبازة، ولم تذكرها أى مصادر أخرى ماعدا المصادر المحلية، ولم يصل صيتها آنذاك حتى العاصمة قيصرية - Caesarea- (شرشال)، لكن النص المحلي و الاكتشافات الأثرية تشهد على الشعبية الكبيرة والمدهشة لهذه الشابة في مدينة تيبازة.

2 - القديسة من خلال الاكتشافات الأثرية:

خلال الحفريات الأولى التي أقيمت بالبازيليك، اكتشف قزيل (St.Gsell) في 1891 كتابة تنتمي إلى تبليط فسيفسائي لبازيليك القديسة صالصا داخل إطار مهيأ وراء شاهدة قبرية لامرأة اسمها فابيا صالصا - fabia salsa-[3](انظر الصورة رقم 1)، وتحتوي الكتابة وهي من النوع الشعري على إحدى عشر سطرا يتحدث نصها عن إهداء قام به شخص يدعى - Potentius - ، له صفة قديس من خلال كلمة -sanctus- يخص أشغال تزيين بازيليك القديسة، و ما يهمنا من النص هو ذكر اسم القديسة، والتأكيد على وجود جثتها في المكان، كما يدل عليه الجزء التالي من النص: «Martyr hic est Salsa dulcior nectare semper» بمعنى هنا موجودة الشهيدة صالصا التي هي أعذب من الكوثر أو الرحيق.

وفي نفس السنة اكتشفت كتابة ثانية في الجهة الشرقية لبناء ذو حنية يقع أمام الجدار الجنوبي للبازيليك (البناء ربما هو ضريح القديسة - martyrium- الذي ذكره النص) فوق دعامة عبارة عن ساكف باب، ولم تكن الكتابة كاملة وواضحة، وهي تحتوي على ثلاثة اسطر، محاطة على اليسار بشريط مسطح بحز عميق، ويعبر نصها عن إهداء للقديسة، حيث يظهر اسمها في السطر الثالث[4](أنظر الشكل رقم 1).

وتمثل المقبرة الشرقية أحسن مثال لكثافة القبور المسيحية الموجودة حول قبرها في البازيليك، وهي قبور لأشخاص مسيحيين حرصوا على ان تكون قبورهم قريبة من قبرها، وهو ما يعرف بالدفن قرب القديسين من خلال العبارة اللاتينية «ad sanctos»، وقد انتشرت هذه الطريقة في الدفن بكثرة في الفترة المتأخرة.

وتعتبر المقبرة الشرقية بمدينة تيبازة من أكثر المقابر كثافة في عدد القبور بشمال إفريقيا، ويعطينا المخطط الذي وضعه قزيل بعد الحفريات التي قام بها فكرة عن موقع البازيليك داخل المقبرة الشرقية، والعدد الكبير للقبور المحاطة بالبازيليك[5] (الشكل رقم 2).

وقد دار الجدال حول هذه القديسة و اختلفت آراء الباحثين بين مؤكد لوجودها، وبين رافض لذلك، و من أهم هؤلاء الباحثين نذكر:

قريقوار(H.Gregoire) الذي قام في سنة 1937 بفحص النص المحلي الخاص بصالصا، وكذا نتائج الحفريات التي أقيمت بالبازيليك، وخلص إلى نتيجة مفادها ان طقس القديسة صالصا، ونص الأسطورة ولدا من خلال تفسير خيالي لنقيشة وثنية نقشت فوق شاهدة قبر تم اكتشافها داخل البازيليك، و تعود إلى القرن الثالث، تخص سيدة عمرها ثلاث و ستون عاما اسمها فابيا صالصا «Fabia Salsa»[6].

فحسب هذا الباحث فان الكتابة الوثنية فسرت على أنها مسيحية خطأ، خاصة و ان اسم صالصا نادر، وربما هذه النقيشة الوثنية هي اصل النص المحلي «Passio».

وفي سنة 1954 أشار كورتوا(Courtois) إلى انه لا يمكن ان نتجاهل كل القيمة التاريخية لهذا النص، فصاحبه كان واعيا بالتراجع التدريجي للوثنية، وانتصار المسيحية عليها، ويبقى المشكل في تفسير مكان وجود هذه الشاهدة القبرية الوثنية في بازيليك القديسة صالصا، ووجود شهيدة مسيحية شابة تختلف عن السيدة الوثنية[7].

ثم يأتي كريسترن(Christern) الذي قام بدراسة دقيقة لمختلف عناصر البازيليك، واقترح تفسيرا حسبه يحل لغز الصالصتين ان صح التعبير داخل البازيليك الكبيرة التي ترجع إلى القرن الخامس ميلادي[8].

ويكون ذلك بتتبع مراحل تهيئة المقبرة التي حدد فيها النص مكان تواجد جثة القديسة من خلال الآثار و الكتابات، ففي إحدى مقابر المدينة دفنت سيدة عمرها ثلاث وستون عاما، اسمها فابيا صالصا في القرن الثالث، وزين قبرها بكؤيس جميل جدا مزين بورود، وفي نفس المقبرة وضعت جثة الشهيدة الشابة التي تحمل نفس كنية السيدة، في النصف الأول للقرن الرابع، وأقيم لها في الربع الثاني من القرن الرابع مبنى «Martyrium» فوق قبرها، وهو عبارة عن معلم يتكون من حنية تقابلها طاولة جنائزية كبيرة.

و قد أشار النص إلى هذا البناء في العبارة اللاتينية التالية «breve tabernaculum»، ونسب هذا الضريح إلى صالصا الشابة بعد العثور في مكان قريب منه، على كتابة غير كاملة يحمل نصها صيغة إهداء فوق دعامة لها شكل ساكف، ويظهر في النص اسم صالصا، وخلال القرن الرابع أو في نهايته بنيت بازيليك شمال هذا الضريح أين نقلت إليها رفات القديسة داخل قبر حجري، وتم وضع الشاهدة القبرية الوثنية قرب قبر القديسة، والشيء الذي يؤكد انه ليس هو المكان الأصلي للشاهدة القبرية الوثنية، وأنها نقلت إلى البازيليك هو أن المعلم الذي من المفروض يحتويها غير موجود كما هو معروف في الشواهد القبرية من هذا النوع، فربما وضعت هذه الشاهدة الوثنية بالقرب من قبر القديسة فقط لأنها تحملان الاسم نفسه، ثم عثر على تبليط فسيفسائي يحمل كتابة تذكر قيام شخص اسمه بوتنتيوس «Potentius» بتزيين وتوسيع البازيليك في منتصف القرن الخامس ميلادي، ويذكر النص انه تم وضع القديسة صالصا هنا.

فمن المؤكد ان الكتابتين اللتين تشيران إلى القديسة ترتبطان بالبنائين الخاصين بها في المقبرة الشرقية، وتمثل الكتلة الحجرية التي وجدت في وسط البازيليك، والتي احتوت قبر القديسة والشاهدة القبرية الوثنية آخر مرحلة في تهيئة البازيليك، وتوجت هذه الكتلة بقبر وثني جميل يمثل أسطورة انديميون «Endymion»، و اقترح كريسترن انه أعيد وضع رفات القديسة داخل هذا القبر.

فأما بالنسبة لقرقوار، فانه لا يمكننا تأييده في طرحه الذي يعتبر النص الأدبي الخاص بالقديسة صالصا نصا أسطوريا، فكل القصص مهما كانت تحمل من خيال، فإنها تحتوي بدون شك على حقيقة تؤكد ان التيبازيين كانوا يؤكدون من خلال هذا النص على الوجود الفعلي للقديسة، فطقسها تطور وظهر في فترة عايشها فيها أشخاص شهدوا استشهادها، و سجل احدهم ذلك في هذا النص المحلي.

وقد تأكد طقسها حسب الدراسة التي قامت بها ديفال «Duval» ابتداء من منتصف القرن الرابع، أي في نفس تاريخ ظهور النص الذي ذكر هذه القديسة الشابة، ولا تبتعد الشهادات الأدبية والكتابات الأثرية كثيرا عن هذا التاريخ[9].

و لكن يصعب تحديد تاريخ استشهادها، رغم ان كورتوا اقترح ان يكون ذلك في سنة 320 م، حيث ربطه بأحد شهداء مدينة تيبازة يدعى فيكترنيوس «Victorinus»، وهو أمر مستبعد حسب ديفال، لان النص الأدبي الخاص بصالصا لم يذكر هذا الشخص، وأيضا لما يربطها كورتوا بهذا القديس بالذات مادامت تيبازة تزخر بعدد كبير من الشهداء المسيحيين الذين لا نعرف عنهم شيئا كثيرا، بل نجهل حتى أسماءهم أحيانا، وأيضا ان فيكتورنيوس دفن في المقبرة الغربية، بينما القديسة دفنت في المقبرة الشرقية.

و اقترب كريسترن أكثر من التفسير المنطقي للنص، وكذا الاكتشافات الأثرية، وهو تفسير أوضحه من قبل قزيل[10].

إلا انه يصعب قبول الفرضية الأخيرة لكريسترن، التي تقول انه تم نقل مرة أخيرة رفات القديسة إلى القبر الوثني الذي كان يتوج الكتلة الحجرية التي احتوت قبر القديسة والشاهدة القبرية الوثنية.

ورغم أننا لم نعثر على شاهدة قبرها الذي يكون من المفروض هو مكان استشهادها، فان ذلك لا يعد استثناء، فلدينا الكثير من الأمثلة لشهداء مسيحيين الذين خلدت ذكراهم فقط فوق قبور لا تحتوي على جثتهم.

خاتمة:

تبقى الكتابة الأولى التي اكتشفت على ساكف قرب ضريحها المفترض، والتي يصعب تحديد تاريخها بالضبط، إلى جانب الكتابة الثانية المكتشفة داخل التبليط الفسيفسائي، والتي تعود إلى نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس، أهم وثيقتين ماديتين، إلى جانب النص الأدبي الذي يكون تاريخه بين نهاية القرن الرابع و بداية القرن الخامس، وهي وثائق تؤكد وجود قديسة اسمها صالصا، لا نعرف بالضبط تاريخ استشهادها الذي يبقى يقترب من نهاية القرن الرابع إلى بداية الخامس، وليس لها علاقة بالشاهدة القبرية للسيدة الوثنية فابيا صالصا، فقط في أنهما تحملان نفس الاسم، وأرجح ان يكون الضريح الذي وجد داخل البازيليك هو النواة الأولى لبنائها، وعرفت البازيليك أشغالا لتوسيعها، فرضه الاكتظاظ الكبير لعدد قبور المسيحيين الذين كانوا يتسابقون في ان تكون قبورهم قريبة من قبر القديسة تبركا بها، ورغم أننا لا نستطيع تأكيد المكان الذي احتوى جثتها بالضبط، ولا سنها ماعدا ما ذكره النص المحلي، إلا ان هذه القديسة وجدت فعلا كما أثبتته الكتابتين المخلدتين لذكراها، وعرفت شعبية كبيرة في مدينتها تيبازة، وهي جزءا هاما من تراث هذه المدينة.

الملاحق:

الصورة رقم 1: كتابة أثرية تحمل اسم القديسة سان صالصا.

الشكل رقم 1: كتابة أثرية تحمل اسم القديسة سان صالصا.

الشكل رقم 2: مخطط المقبرة الشرقية وبازيليكا القديسة سان صالصا.

الهوامش:

1 - تترجم كلمة - passio- لغويا إلى كلمة (passion) الفرنسية، والتي تعني الشغف. ولكن اصطلاحا فيقصد بها هنا ألام الشهداء المسيحيين قبل استشهادهم، وهي آلام كانوا يتقبلونها بكل فرح لأنها تذكرهم بآلام السيد المسيح عليه السلام حين اصلب.

2 - Gregoire (H). Sainte Salsa ; roman épigraphique. dans. byzantion. XII. 1937. pp213-244.

3 - Gsell(St). Notes sur quelques inscriptions de tipasa. dans. B.C.T.H . 1892. pp319-321

4 - Gsell(St). sur quelques inscriptions de tipasa. dans. B.C.T.H. 1892. pp319-321

5 - Albertini (E.) et Leschi (L.). « Le cimetière de sainte Salsa. à Tipasa de Maurétanie ». in C.R.A.I. 1932. p.41.

6 - Gregoire(H). Sainte Salsa ; roman épigraphique. dans. byzantion. XII. 1937. pp213-244

7 - Courtois(Chr).Victorinus et Salsa .note d'hagiographie tipasienne .dans .R.S.A.C T. 68. 1954. pp. 109-119

8 - Christern(J). La basilique sainte Salsa. dans. B.A.A. III. 1968. pp. 193-199

9 - Duval(Y).Loca sanctorum Africae.Ecole française de Rome.1984.pp697-700

10 - Gsell(St). La basilique de sainte Salsa a Tipasa. Paris. 1893. pp1-76